المبحث الثاني
رجال التصوف

• **أولاً: الإمام القشيري:**

المطلب الأول: حياته

➢ **أولاً: اسمه:**

هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك ابن طلحة بن محمد القشيري النيسابوري الشافعي قيل فيه: هو الإمام مطلقاً، الفقيه، المتكلم، الأصولي، المفسر، الأديب.. لسان عصره، من جمع بين الشريعة والحقيقة أستاذ الجماعة ومقدم الطائفة[(١)].

➢ **ثانياً: نسبهُ:**

بالقشيري: إلى قبيلة (قشير بن كعب) العربية المعروفة [(٢)].

➢ **ثالثاً: كنيته:**

أبو القاسم.

➢ **رابعاً: لقبهُ:**

(زين الإسلام) سماهُ به الإمام السبكي، ولا أعلم أحداً وصفهُ به غيرهُ[(٣)].

---

(١) ينظر: تاريخ بغداد: ٨٣/١١، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: ١٧٠/٣٣، وطبقات الشافعية الكبرى: ١٥٠/٣.

(٢) ينظر: طبقات الشافعية: ١٥٠/٣.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٥٠/٣.

➢ **خامساً: ولادته:**

ذكرت المصادر أنَّ ولادتهُ كانت سنة ست وسبعين وثلاثمائة في شهر ربيع الأول في بلدة يقال لها (أستُوا) وكان سكانها من العرب الذين قدموا خراسان وقد توفي أبوهُ وهو طفل صغير لم يبلُغ الحُلم.

➢ **سادساً: أسرته:**

لم تسعفنا المصادر بترجمة وافية تشفي الغليل عن أسرتهِ إلا بعض السطور من هنا وهناك.

فأما أبوه فهو: هوازن بن عبد الملك كان شغوفاً بحب الأدب والشعر، ولاسيما كتب الرقائق[1] ولعل السبب في ندرة المصادر التي ترجمت، هو تقدم وفاتهِ.

- وأما أمهُ: فيذكر ابن الجوزي[2] أنّها (سلمية من قَبيلة سُليم) وكانت فاضلة عابدة ناسكة محبة للعلم توفيت بعدهُ سنة ٤٨٠هـ[3].

- أما زوجتهُ فهي فاطمة بنت أبي علي الدقاق[4] شيخهُ زوَّجَهُ إياها مع

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان: ٢٠٦/٣.

(٢) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف. مولده ببغداد سنة (٥٠٨هـ) ووفاته بها (٥٩٧هـ)، له نحو ثلاث مئة مصنف، منها، الأذكياء وأخبارهم ومناقب عمر بن عبد العزيز، وروح الأرواح وشذور العقود في تاريخ العهود والمدهش في المواعظ وغرائب الأخبار وغيرها، ينظر: وفيات الأعيان: ٢٧٩/١، والبداية والنهاية: ٢٨/١٣.

(٣) ينظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ١٤٨/١٦.

(٤) ينظر: وفيات الأعيان: ٢٠٦/٣.

كثرة أقاربها، وكانت معروفة بالزهد والورع وليس بمستغرب عليها، لأنّ بيت أبي علي الدقاق بيت علمٍ وزهدٍ وتُقى وورع[1].

➢ **سابعاً: أولاده:**

فقد كان له عدة أولاد منهم: عبد الله وعبد الواحد وعبد الرحيم وعبد المنعم وغيرهم وكلهم أئمة[2].

١. **عبد الرحمن:** كنيتهُ أبو منصور، كان فاضلاً ديناً، ورعاً استوعب الوقت بالخلوة والتلاوة سمع الكثير وكتب الكثير، حج سنة ٤٨٠هـ وتوفي بمكة المكرمة سنة ٥٠٢هـ[3].

٢. **عبد الله:** وكُنيتهُ أبو سعد وأبو الفتح ولد سنة ٤١٤هـ، وكان فاضلاً، وصاحب علوم كثيرة لاسيما علم التصوف وقد سمع الحديث وحدّث، إلا أنَّ اهتمامهُ كان منصباً في علم التصوف. توفي في ذي القعدة سنة ٥٠٧هـ[4]. وولد له أبو المكارم عبد الرزاق، وأبو المعالي عبد الكريم، وأمّه جوهر بنت عبد الله.

٣. **عبد الواحد:** وكنيتهُ أبو سعيد، شيخ خراسان علماً وزهداً، وفضلاً، وكان قوي الحفظ نحوياً، شاعراً حَسن الخط، كثير التلاوة، ملازماً للعبادة، لا يفتر عنها، ولد له أبو الأسعد هبة الرحمن من صالحي نيسابور، من شعر عبد الواحد:

---

(١) ينظر: طبقات الشافعية: ١٥٠/٣.

(٢) ينظر: تاريخ الإسلام: ١٧٥/٣٣.

(٣) ينظر: طبقات الشافعية للأسنوي: ١٥٨/٢.

(٤) ينظر: طبقات الشافعية للأسنوي: ١٥٩/٢.

يا شاكياً فرقة شـــهر الـــصيام تفيض عينـــاهُ كفـــيض الغمـــام
ذلك من أوصاف من لم يكـــن حُضوره الباب بنعـــت الـــدوام
دُم حاضراً بالبـــاب مـــستيقظاً وكل شهر لك شـــهر الـــصيام

توفي سنة ٤٩٤هـ[١].

٤. **عبد الرحيم**: وكنيته أبو نصر بن عبد الكريم بن هوازن من أهل نيسابور. كان من أئمة المسلمين وأعلام الدين، وأشهر أبناء القشيري، قرأ الأصول على والده وتفسير القرآن والوعظ ورزق من ذلك حظاً وافراً، ولازم إمام الحرمين ودرس عليه المذهب والخلاف وبرع في ذلك وجاز أقرانه. وقرأ الأدب ونظم ونثر وسمع من إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، وعبد الغافر ابن محمد بن عبد العزيز الفارسي وغيرهم. وقدم بغداد وسمع ابن النقور، وعبد العزيز الأنماطي، وعبد الباقي بن محمد بن غالب العطار وغيرهم. وسمع بمكة سعد بن علي الزنجاني، والحسن ابن عبد الرحمن الشافعي. وعقد مجلس الوعظ ببغداد وظهر له القبول العظيم وأظهر مذهب الأشعري. توفي سنة ٥١٤هـ[٢]، وقد رزقه الله ذرية من أهل الخير والصلاح منهم أمة الله جليلة، وأمة الرّحيم حَرّة، وأمة الرّحمن سارة.

٥. **عبد المنعم**: وكنيتهُ، أبو المظفر، ولد سنة ٤٤٥هـ، وفي مطلع شبابه سمع من جماعة كثيرين ببغداد وغيرها، وحدّث، وعقد مجلس التذكير مدة حياة والدِه، حجَّ مرات عديدة، عاد إلى نيسابور واشتغل بالعبادة إلى أن مات بين العيدين سنة ٥٣٢هـ، وهو أصغرهم سِناً وآخرهم موتاً[٣].

---

(١) ينظر: الأنساب: ١٥٦/١٠.

(٢) ينظر: الوافي بالوفيات: ١٢٥/٦، وينظر طبقات المفسرين: ٥٥/١.

(٣) ينظر: طبقات الشافعية: ١٦٠/٢.

➢ **ثامناً: نشأته وطلبه العِلْمَ:**

بعد وفاة أبيه، نشأ القشيري يتيماً لكن النجابة ظهرت فيه من صغره[١] فقرأ الأدب والعربية، وزعم ابن الجوزي أَنَّهُ كان يهوى مخالطة أهل الدنيا، فحضر عند أبي علي الدقاق فجذبهُ إلى ذلك[٢].

وذكر أنَّ القُشيري جاء إلى نيسابور ليعلم الحساب ليتولى الاستيفاء في قريتهِ ويحميها من الخراج[٣] فاتفّق حضوره مجلس أبي علي، ويبدو أَنَّه أبا علي الدقاق، فأعجب بكلام أبي علي، والتمس في وجهه سمات الصالحين، وأثرَّ فيه كلامه البليغ كما كان يؤثر في الحاضرين[٤].

وبعدها خرج إلى درس أبي بكر الطوسي[٥] حيث درس عندهُ الفقه حتى فرغ من تعليقهِ، ثم اختلف إلى الأستاذ أبي بكر بن فورك، فقرأ عليه حتى أتقن علم الأصول.

وسمع الحديث من أبي الحسين الخفـــاف[٦]، وأبي نُعـــيم الاســـفراييني،

---

(١) ينظر: تبيين كذب المفتري: ٢٧٤.

(٢) ينظر: المنتظم: ١٦ ١٤٩.

(٣) ينظر: وفيات الأعيان: ٢٠٦/٣، وتاريخ الإسلام: ٣٣ ١٧١.

(٤) ينظر: شذرات الذهب: ٨/٤.

(٥) محمد بن بكر بن محمد أبو بكر الطوسي النوقاني من نوقان إحدى مدائن طـــوس، هو إمام أصحاب الشافعي بنيسابور وفقيههم ومدرسهم وله الدرس والأصـــحاب ومجلس النظر وله مع ذلك الورع والزهد وتوفي بنوقان سنة (٤٢٠هـــ)، ينظـــر: طبقات الشافعية للسبكي: ١٢١/٤.

(٦) أحمد بن محمد بن أحمد بن عمر الزاهد، أبو الحسين بن أبي نـــصر النيـــسابوري الخفاف. قال الحاكم: كان مجاب الدعوة، وسماعاته صحيحة بخط أبيـــه مـــن=

وأبي بكر عبدوس المزكى[1]، وأبي نُعيم أحمد بن محمد المهرجاني[2]، وعلي بن أحمد الأهوازي[3]، وأبي عبد الرحمن السلمي، وأبي باكويه الشيرازي[4]، والإمام الحاكم وابن فورك، وأبي الحسين بن شيران[5] وغيرهم، وعندما توفي الأستاذ أبو بكر اختلف إلى الاسفراييني، وجلس يسمع جميع دروسهِ، فأتت عليه أيام فقد قال لهُ أبو إسحاق: هذا العلم لا يحصل بالسماع، فأعاد عندهُ ما سمعهُ منهُ، فأعجب بقوة ذاكرتهِ، وقررهُ أحسن تقرير، حتى قال: ما كنت أدري أنَّك بلغت هذا المحل، فلست تحتاج درسي، ويكفيك أنك تطالع مصنفاتي وتنظر في طريقتي، وإن أشكلَ عليك طالعتني به، ففعل ذلك، وجمع بين طريقتهِ وطريقة ابن فورك[6].

=أبي العباس السراج وأقرانه، وبقي واحد عصره في علوم الإسناد، ومات في شهر ربيع الأول سنة (٣٩٥هـ). قال الحاكم: وصليت عليه وله ثلاث وتسعون سنة. ينظر: الوافي بالوفيات: ٣٦/٣، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي: ٤٩٥/١.

(١) أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدوس بن أحمد النيسابوري المزكي، النحوي الفقيه، توفي سنة (٣٩٦هـ) ينظر: سير أعلام النبلاء: ٥٧/١٧.

(٢) لم أجد له ترجمة.

(٣) لم أجد له ترجمة.

(٤) أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن عبيد الله بن باكويه، الشيرازي الإمام الصالح المحدث، شيخ الصوفية، ولد سنة نيف وأربعين وثلاث مئة. وطلب هذا الشأن، وارتحل فيه، مات سنة (٤٢٨هـ) ينظر: سير أعلام النبلاء: ٢٩٨/١١، والنجوم الزاهرة: ٤٨٢/١.

(٥) لم أجد له ترجمة.

(٦) ينظر: الكامل في التاريخ: ٩٠/١٠.

ثم نظر بعد ذلك في كتب القاضي أبي بكر ابن الطيب، وهو مع ذلك يحضر مجالس أبي علي الدقاق إلى أن اختارهُ لكريمته فزوجها منهُ[1]، وبعد وفاة الاسفراييني، لازم أبا عبد الرحمن السلمي، إلى أن صار أستاذ خراسان، فأخذ في التصنيف، فصنف التفسير الكبير قبل ٤١٠هـ، ورتب المجالس وخرج إلى الحج في رفقة أبي محمد الجويني والبيهقي وغيرهم. وكان لهُ في الفروسية واستعمال السلاح يد بيضاء[2].

➢ **تاسعاً: آراء العلماء في تصوفه وعلمه:**

أثنى العلماء عليه، وأشادوا بخلقه وزهده وعلمه، قال عنه التاج السبكي: الأستاذ أبو القاسم القشيري النيسابوري الملقب بزين الإسلام، الإمام مطلقاً، وصاحب الرسالة التي سارت مغربا ومشرقاً، والبسالة التي أصبح بها نجم سعادته مشرقاً، أحد أئمة المسلمين علماً وعملاً وأركان الملة فعلاً ومقولاً، إمام الأئمة ومجلي ظلمات الضلال المدلهمّة، أحد من يقتدى به في السنة [3]، وصار يشار إليه بالبنان وكثر طلابه في البلاد، ولمكانته صحبه العلامة الجويني إمام الحرمين وحج معه برفقة الحافظ أبي بكر البيهقي.

• **حلقات التصوف:**

وعندما توفي شيخه الدقاق تصدر القشيري حلقات التصوف، وأصبح أستاذ خراسان بلا منازع، وبلغت شهرته الآفاق. وكان صاحب فكر ومنهج إصلاحي يدعو إلى ضرورة الملازمة بين علوم الشريعة والتصوف، وظهر هذا

---

(١) ينظر: المصدر نفسهُ: ٩٠/١٠.

(٢) ينظر: وفيات الأعيان: ٢٠٦/٣، وتاريخ الإسلام: ١٧٢/٣٣.

(٣) ينظر: طبقات الشافعية: ١٢٢/٤.

جلياً في الرسائل والمصنفات القيمة التي حررها، وذكرت المصادر أن أغلب مصنفاته لا تزال مخطوطة، وبعضها فقد، و(الرسالة القشيرية في التصوف) وهى من أهم مصنفاته، وقد اشتهرت في حياته وأقبل الناس عليها، وأراد فيها تبيان حقيقة الصوفية، وأن عقيدتهم هي عقيدة توحيد الله وتنزيهه عن مشابهة الخلق. يعتبر تفسير (لطائف الإشارات) للإمام القشيري والذي اشتهر بالتفسير الكبير، من أجود التفاسير، ويقع في ستة مجلدات، وهو تفسير صوفي حرص الإمام القشيري فيه على أن يعطي دائما تفسيراً إشارياً لآيات الذكر الحكيم، واستعمال اللغة الرمزية في تفسير الأمثال القرآنية والظواهر الطبيعية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. ويتميز بغياب أو قلة أدوات التفسير التقليدي مثل أسباب النزول والإسرائيليات والأحاديث الشريفة. وتتضح فيه المواقف الكلامية للإمام القشيري، والتي تخص الأسماء والصفات والقدر وخلق الأفعال ومصير مرتكب الكبائر ورؤية الله يوم القيامة، وهذه المواقف لا تبتعد عن مواقف المدرسة الأشعرية التي ينتمي إليها القشيري ودافع عنها بشدة طول حياته. وتوفي الإمام القشيري رحمه الله سنة (٤٦٥هـ).

وقال عنه أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي: الإمام مطلقاً الفقيه المتكلم الأصولي المفسر الأديب النحوي الكاتب الشاعر لسان عصره وسيد وقته وسر الله بين خلقه شيخ المشايخ وأستاذ الجماعة ومقدم الطائفة ومقصود سالكي الطريقة وبندار الحقيقة وعين السعادة وقطب السيادة وحقيقة الملاحة لم يرَ مثل نفسه ولا رأى الراؤون مثله من كماله وبراعته جمع بين علمي الشريعة والحقيقة وشرح أحسن الشرح أصول الطريقة[1].

(١) ينظر: المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور: ٣٦٥.

وقال الخطيب البغدادي: وكتبنا عنه وكان ثقة وكان يقص وكان حسن الموعظة مليح الإشارة وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي[1].

➢ عاشراً: وفاتهُ:

تكاد تجمع المصادر على أن وفاتهُ صبيحة الأحد ١٦ ربيع الآخر سنة ٤٦٥هـ ويذكر السيوطي أنَّهُ تمرض قبل وفاتهِ، ورغم شدة المرض، فإنهُ لم تفتهُ صلاة قائماً. توفي في نيسابور، ودفن في المدرسة بباب الطاق، بجوار شيخه أبي علي الدقاق.

ويقال أنَّهُ رُئيَ في المنام، فَسُئِلَ عن حاله فأجاب: أنا في أطيب عيش وأكمل راحة. ومن عجيب ما وقع أنَّ الفَرس التي كان يركبها كانت قد أهديت لهُ، فركبها عشرين سنة، فعندما توفي، امتنعت العَلف، ولم تطعم شيئاً، ولم تُمكّن أحداً من ركوبها، ومكثت أياماً قلائل على هذهِ الحال، إلى أن ماتت.

المطلب الثاني: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

إن ما خلّفهُ القُشيري من أثر علمي واضح في مصنفاتهِ، دليل على علو قَدرهِ ومكانتهِ العلمية، ولاسيما علم التصوف، فكان لهُ القدم العليا في هذا الشأن، لا يشق لهُ غبار.

قال تلميذه الخطيب البغدادي في حقه: «حدث ببغداد، وكتبنا عنهُ، وكان ثقةً»[2] ينعتهُ ابن الجوزي بأنَّهُ كان فقيهاً بارعاً أصولياً محققاً متكلماً سُنياً محدثاً حافظاً[3].

---

(١) ينظر: تاريخ بغداد: ٨٣/١١.

(٢) تاريخ بغداد: ١٥٠/٣.

(٣) ينظر: المنتظم: ١٤٩/١٦.

وقال ابن خلكان[1]: «كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول، والأدب والشعر والكتابة، وعلم التصوف، جمع بين الشريعة والحقيقة»[2].

وقال السبكي[3] في وصفه: «الإمام مطلقاً، وصاحب الرسالة التي سارت مغرباً ومشرقاً. والبسالة التي أصبح بها نجم سعادته مُشرِقاً»[4].

وقال الباخرزي[5]: «الإمام زين الإسلام، أبو القاسم، جامع لأنواع المحاسن تنقاد لهُ صعابها ذلك المراسن، فلو قرع الصخر بسوط تحذيرِه لذاب، ولو ربط إبليس في مجلس تذكيرِه لتاب»[6] **قلت**: هذا مدح مبالغ فيه فإبليس مطرود من رحمة الله ولا تُقبل لهُ توبة.

---

(١) محمد بن محمد بن إبراهيم ابن أبي بكر بن خلكان القاضي بهاء الدين أبو عبد الله الأربلي الشافعي قاضي بعلبك، ولد بأربل سنة ٦٠٣هـ، وسمع صحيح البخاري من أبي جعفر ابن مكرم وكان معدوم النظير في كثير من أوصافه من التواضع المفرط ولين الكلمة ورقة القلب وسلامة الصدر، توفي ببعلبك قاضياً بها في سنة (٦٨٣هـ)، ينظر: الوافي بالوفيات: ١/٩٠، والأعلام: ١/٢٢٠.

(٢) وفيات الأعيان: ٣/٢٠٥.

(٣) هو عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن تمام السبكي، أبو نصر، تاج الدين أنصاري، من كبار فقهاء الشافعية. ولد بالقاهرة سنة (٧٢٧هـ) سمع بمصر ودمشق. تفقه على أبيه وعلى الذهبي. برع حتى فاق أقرانه. كان السبكي شديد الرأي، قوي البحث، يجادل المخالف في تقرير المذهب، توفي سنة (٧٧١هـ)، من تصانيفه، ينظر: طبقات الشافعية، لابن هداية الله الحسيني: ٩٠، وشذرات الذهب: ٦/٢٢١، والأعلام: ٤/٣٢٥.

(٤) طبقات الشافعية: ٣/١٥٠.

(٥) أحمد بن الحسين الباخرزي، أبو نصر، أديب وجيه، من مفاخر باخرز، له شعر رقيق وأدب غض. استوزره الأمير بيغوا الحسن بن موسى في خراسان. ومات قتيلا في قرية (بنداشير) سنة (٤٣٥هـ)، ينظر: الأعلام: ١/١١٦.

(٦) ينظر: دمية القصر: ٢/٢٤٣.

المطلب الثالث: زهدهُ وورعهُ

لقد سبق القول بأنَّ القشيري انحدر من عائلة صلاح وتقوى وحب للخير، حتى أنَ الذي تكفلهُ بعد موت أبيه، كان موصوفاً بذلك، مع تأثره بعلماء عصره نتيجة صحبتهِ لهم، ولاسيما أبو علي الدقاق وغيرهُ.

ومن الجدير بالذكر أنَّهُ رحمه الله قد انتهت إليه رئاسة التصوف في زمانهِ، لما أتاه الله من الأحوال والمجاهدات وتربية المريدين وتذكيرهم، وعباراتهم العَذبة لهم، فكان عديم النظير في ذلك، طيب النفس، لطيف الإشارة غواصاً في المعاني[1].

وقال عبد الغافر الفارسي[2]: «ومن جملة أحواله، ما خُصَّ به من المحنة في الدين، وظهور التعصب بين الفريقين في عشر سنة أربعين إلى خمس وخمسين وأربعمائة، وميل بعض الولاة إلى الأهواء، وسعي بعض الرؤساء إليه بالتخليط، حتى أدى ذلك إلى رفع المجالس، وتفرَّق شمل الأصحاب، وكان هو المقصود من بينهم حسداً، حتى اضطر إلى مفارقة الوطن»[3].

ومن شعرهِ رحمه الله:

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام: ١٧٢/٣٣.

(٢) أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر بن محمد بن عبد الغافر بن أحمد ابن محمد بن سعيد الفارسي الحافظ، ولد سنة (٤٥١هـ) كان إماماً في الحديث والعربية وقرأ القرآن الكريم، وتفقه على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، صنف كتباً عديدة منها: المفهم لشرح غريب صحيح مسلم والسياق لتاريخ نيسابور وغيرها، توفي سنة (٥٢٩هـ). ينظر: وفيات الأعيان: ٢٢٥/٣.

(٣) ينظر: المنتخب من السياق: ٣٣٤.

سَقى الله وقتاً كنت أخلو بوجهكم وثغر الهوى في روضة الأُنس ضاحكُ
أقمنا زمانـــاً والعيـــون قريـــرة وأصبحت يوماً والجفون سوابكُ[1]

المطلب الرابع: شيوخُهُ

سمع القشيري من عدد كبير من العلماء والشيوخ، وكان حريصاً على وقتهِ، ومن أبرز شيوخهِ.

١. **الحاكم النيسابوري**: محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي، الطهَّماني النيسابوري الشهير بالحاكم، أبو عبد الله، من أكابر حفاظ الحديث، والمصنفين فيه. ولد في نيسابور سنة ٣٢١هـ، وتوفي فيها سنة ٤٠٥هـ. رحل إلى العراق سنة ٣٤١هـ، حجّ وجال في بلاد خراسان، وما وراء النهر، وأخذ على نحو ألفي شيخ. وتفقه على أبي علي بن أبي هريرة وأبي الوليد النيسابوري وأبي سهل الصعلوكي وغيرهم أخذ عنه الحافظ أبو بكر البيهقي فأكثر عنه، وبكتبه تفقّه قال ابن عساكر: وقع من تصانيفه المسموعة في أيدي الناس ما يبلغ ألفًا وخمسمائة جزء. منها: تاريخ نيسابور، وهو صاحب المستدرك على الصحيحين قال فيه السبكي: وهو عندي من أعود التواريخ على الفقهاء بفائدة ومن نظره عرف تفنن الرجل في العلوم جميعها[2].

٢. **أبو بكر ابن فورك**: هو الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك المتكلم الأصولي النحوي الواعظ الأصبهاني[3]، ولم تذكر المصادر سنة ولادته، أقام بالعراق، ودرس فيه مذهب الأشعري ثم رحل إلى مدينة الري، وأراد

---

(١) تاريخ الإسلام: ١٧٢/٣٣.

(٢) ينظر: الأوهام الواقعة في أسماء العلماء والأعلام: ٢١/١، وطبقات الشافعية، لابن قاضى شهبة: ١٩٤/١.

(٣) ينظر: وفيات الأعيان: ٢٦٩/٤، وطبقات الشافعية: ١٢٧/٤.

به المبتدعة السوء فراسله أهل نيسابور أنّ يأتي إليهم، ففعل وقدم إليهم فبنوا له داراً ومدرسة، وقد أحيا الله به العلوم في المدينة، وتخرجت ببركته جماعة من المتفقهة [١]. وقد مات مسموماً بعد أن رجع من مدينة (غزنة) وهي مدينة في أوائل الهند، بعد ما أجرى مناظرة قوية ردَّ بها على المبتدعة، ولّما وصل نيسابور دسوّا له السُمَّ في الطعامِ فمات شهيداً سنة ٤٠٦هـ[٢].

٣. **أبو علي الدقاق** الحسن بن علي بن محمد أبو علي الأستاذ الدقاق الزاهد النيسابوري، شيخ الصوفية وشيخ أبي القاسم القشيري. توفي في ذي الحجة سنة ٤٠٦هـ، وقيل سنة اثنتي عشرة وأربعمائة والله أعلم[٣].

٤. **أبو عبد الرحمن السلمي**: محمد بن الحسين بن محمد بن موسى، أبو عبد الرحمن النيسابوري. ولد سنة ٣٢٥هـ وتوفي ٤١٢هـ، كان إماماً كبيراً من أئمة التصوف، صنف لأهل التصوف، سنناً وتفسيراً، وتأريخاً، وله بنيسابور دويرة معروفه لهم[٤].

٥. **أبو نعيم الإسفراييني**: عبد الملك بن الحسن بن محمد بن إسحاق بن الأزهر الأزهري. أبو نعيم الإسفراييني. روى عن خال أبيه الحافظ أبي عوانة كتاب الصحيح المسند واحتاط له خاله في سماعه؛ فبارك الله في عمره حتى سمعه الأئمة واشتهر منهم الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل وكان رجلاً صالحاً ثقة توفي سنة ٤٠٠هـ[٥].

---

(١) ينظر: تبيين المفتري: ٢٣٢، وطبقات الشافعية: ١٢٧/٤.

(٢) ينظر: وفيات الأعيان: ٢٧٢/٤ -٢٧٣، طبقات الشافعية: ١٣١/١.

(٣) ينظر: الوافي بالوفيات: ١٧٩/٤، وطبقات الفقهاء: ١٤١/١.

(٤) طبقات الأولياء: ٥٣/١.

(٥) الوافي بالوفيات: ٢٤٦/٦.

المطلب الخامس: تلامذته

ومن أبرز تلامذتهِ:

١. الخطيب البغدادي:

هو أحمد بن علي بن ثابت، أبو بكر الشهير بالخطيب البغدادي. ولد في بغداد، سنة ٣٩٢هـ وتوفي فيها سنة ٤٦٣هـ، أحد مشاهير الحفاظ والمؤرخين. كان حنبلي المذهب ثم أصبح شافعياً. رحل إلى البصرة، ونيسابور وأصبهان وهمذان والشام والحجاز. سمي الخطيب، لأنَّه كان يخطب بدرب ريحان [(١)]. لقد كان الخطيب رحمه الله على جانب كبير من الأخلاق الكريمة والصفات الحميدة والمناقب النبيلة. كان مخلصاً في عمله وتصنيفه، ورعاً متحفظاً غير متقرب لسلطان ولا لذي جاه، عفيف النفس، غير حريص على الدنيا، زاهداً فيها، متحملاً الأذى، كان متواضعاً، حتى إنَّه ما كانت تروق له الأسماء والألقاب كالحافظ والمحدث، كان كريماً معطاء، حريصاً على تطبيق العلم كحرصه على جمعه وضبطه وفهمه كان يقول: الواجب أن يكون طلبة الحديث أكمل الناس أدباً، وأشد الخلق تواضعاً وأعظمهم نزاهةً وتديناً، وأقلهم طيشاً، وغضباً لدوام قرع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول الله ﷺ وآدابه، وسيرة السلف الأخيار من أهل بيته وأصحابه، وطرائق المحدثين، ومآثر الماضين، فيأخذوا بأجملها وأحسنها ويصدفوا عن أرذلها وأدونها[(٢)]. من تصانيفه: تاريخ بغداد.

---

(١) ينظر: طبقات الشافعية للسبكي: ١٢/٣، والبداية والنهاية: ١٠١/١٢، وشذرات الذهب: ٣١١/٣.

(٢) ينظر: معجم الأدباء: ٣١/٤، والتذكرة: ١١٣٨/٣.

٢. عبد الوهاب بن شاه الشاذياخي:

ابن أحمد، النيسابوري الشاذياخي الخرزي، ولد سنة ٤٥٣هـ، كان له حانوت يتبلغ فيه من بيع الخرز. سمع الصحيح من أبي سهل الحفصي، وسمع الرسالة من أبي القاسم القشيري، وسمع من أبي حامد الأزهري، وعبد الحميد بن عبد الرحمن البحيري، وحسان المنيعي، ونصر بن علي الحاكمي، وأحمد بن محمد بن مكرم، وأبي صالح المؤذن، وعدة، توفي في شوال سنة ٥٣٥هـ[١]، روى عنه السمعاني، وقال: كان من أهل الخير والصلاح[٢].

المطلب السادس: مصنفاته

صنف القُشيري مصنفات عديدة تدل بشكل جلي على سعة علمه، وأنَّهُ جمع بين علم الشريعة وعلم الحقيقة، وقد لاقت مصنفاتهُ إقبالاً في العالم الإسلامي، وربما كان ذلك بسبب إخلاصهِ ونقاء سيرتهِ.

فمن تلك المصنفات:

١. **لطائف الإشارات**: في تفسير القرآن وهو مطبوع بالقاهرة سنة ١٩٩٥.

٢. **الرسالة القشيرية**: في الأخلاق، وقد طبع أكثر من طبعة.

٣. **كتاب المعراج**: مطبوع في بانكيبور، وقد أخرجه وحققه الدكتور حسن عبد القادر، ونشر في القاهرة سنة ١٩٨٧.

٤. **كتاب التمييز في علم التذكير**: وهو مطبوع في استانبول والقيروان والقاهرة سنة ١٩٨٥.

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ٣٦/٢٠.

(٢) ينظر: التحبير ٥٠١/١-٥٠٢.

٥. **التفسير الكبير**: ويسمى (التيسير في التفسير) وهو مخطوط وهو من أجود التفاسير وأوضحها كما زعم السبكي.

٦. **الأربعين في الحديث**: مخطوط في ليدن.

٧. **حياة الأرواح والدليل على طريق الصلاح والفلاح**: مخطوط بالاسكوربال.

٨. **كتاب القصيدة الصوفية**: وهو مخطوط بالقاهرة.

٩. **كتاب شرح أسماء الله الحُسنى**: وهو مخطوط في الموصل وفارس.

١٠. **كتاب التوحيد النبوي**: وهو مخطوط بالقاهرة.

١١. **كتاب اللمع**: وهو مخطوط بالقاهرة.

١٢. **كتاب الفصول في الأصول**: وهو كتاب في علم أصول الفقه وهو مخطوط بالقاهرة.

١٣. **كتاب ترتيب السلوك**: وهو مخطوط في الفاتيكان.

١٤. **عيون الأجوبة في فنون الأسئلة**: وهو مخطوط في مكتبة آزاد - الهند.

١٥. **نحو القلوب الصغير**: ذكره السبكي في الطبقات.

١٦. **نحو القلوب الكبير**: ذكره السبكي في الطبقات وحاجي خليفة في كشف الظنون.

١٧. **آدب الصوفية**: ذكره السبكي في الطبقات وحاجي خليفة في كشف الظنون.

١٨. **أحكام السماع**: ذكره السبكي في الطبقات وحاجي خليفة في كشف الظنون.

١٩. **المناجاة**: ذكره السبكي في الطبقات.

٢٠. **الجواهر**: ذكره السبكي في الطبقات.

٢١. **المنتهى في نكت أولي النهى**: ذكره السبكي في الطبقات وحاجي خليفة في كشف الظنون.

٢٢. **كتاب الفتوى**: ذكره السبكي في الطبقات.

٢٣. **شكاية أهل السُنة**: ذكره السبكي في الطبقات، وإسماعيل باشا في كتابه (هداية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين).

٢٤. **منثور الخطاب في شهور الألباب**: مخطوط ذكره إسماعيل باشا في كتابه (هداية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين).

٢٥. **ناسخ الحديث ومنسوخه**: مخطوط ذكره إسماعيل باشا في كتابه (هداية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين).

المطلب السابع: مكانة الرسالة القشيرية بين الكتب

تعدّ الرسالة القشيرية من أهم ما أُلِّفَ في علم التصوف، فهي موضوعة أصلاً لتأصيل قواعد التصوف الإسلامي الشرعي البعيد عن البدعة والخرافة والشطح والزيغ، وقد جاءت موضحة لما ينبغي أنْ يكون عليه سالك الطريق إلى الله تعالى، وتظهر مكانتها في مكانة مؤلفها الذي يعد علماً من أعلام المسلمين، وهو الأستاذ عبد الكريم بن هوازن القشيري، الذي يعد علم عصره، وما زاد من أهميتها كون المؤلف من المتقدمين تاريخياً، وهم الأعرف بالتصوف وتأصيله ونشأته، ويظهر ذلك في الأئمة الذين استشهد بأقوالهم، وما يعرف عن هؤلاء الأئمة من العلم والفضل.

كما تعد الرسالة من تراجم الصوفية التي ترجمت لكوكبة من المتقدمين والمشايخ المعروفين من أهل التصوف، فذكرت أصول عقائدهم ومقام الشريعة عندهم، وإرشادهم، ونصحهم للأمة في سلوك طريق مرضاة الله تعالى.

فإذا كانت رسالة الإمام الشافعي في أصول الفقه، هي الأساس في أصول الفقه لكل من جاء بعده، وألف في الأصول، وإذا كانت كتب سيبويه هي من أهم مراجع علم النحو فإنَّ الرسالة القشيرية هي من أعظم الأسس في التصوف، ومن أهم الينابيع التي سقت وتسقي من جاء بعده وألف في علم التصوف.

وذكر صاحب كشف الظنون عن الرسالة القشيرية: «وهي عمدة في هذا الفن»[1]. وقال السبكي وهو يصف انتشار وقبول الرسالة عند الناس: «الرسالة التي سارت مغرباً ومشرقاً»[2]، وقيل فيها: «أنّها ما كانت في بيت فَيُنكَبُ أهله، وأثنى عليها وعلى صاحبها غير واحد من الراسخين»[3] **قلت**: هذا المدح فيه نظر، وذلك أن القرآن الكريم ربما يكون في بيت فيصاب أهل ذلك البيت بمصيبة، وبالأخص لو لم يعمل الإنسان بهديه: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

(١) كشف الظنون: ٨٨٢/١.

(٢) طبقات الشافعية: ١٥٠/٣.

(٣) الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة، محمد بن جعفر الكتاني، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦-١٩٨٦ تحقيق: محمد المنتصر محمد الزمزمي الكتاني: ١٦٦/١.

• ثانياً: الشيخ عبد القادر الجيلاني (قدس سره):

المطلب الأوّل: اسمه ونسبه

هو أبو صالح محيي الدين عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيي الزاهد ابن محمد بن داود بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ.

أمه هي أم الخير فاطمة بنت الشيخ عبد الله الصومعي الحسني الزاهد. فهو حسني من جهة الأب، حسيني من جهة الأم. وعمته الشيخة الصالحة أم عائشة.

ولقد طعن في نسب الشيخ على مر العصور العديد من المؤرخين، وأنكروا انتمائه لعترة الحسن ﷺ سبط الرسول الخاتم سيدنا محمد ﷺ، وهذا الجحود سببه يعزى إلى كلمة جنكي دوست التي وردت في نسب الشيخ عبد القادر، والتي تعني العظيم القدر، والرجل المحب للقتال، والمتهيأ دوماً للترال، لقد رسخ في أذهان هؤلاء المؤرخين أنَّ تلك الكلمة التي لا تمت للعروبة بصلة ولا تصل إليها بسبب، تبرهن بجلاء بأنَّ الشيخ أصوله أعجمية، ولقد تصدى لهؤلاء المؤرّخين العديدُ من المحبين والمنصفين، ففندوا مزاعمهم، وأبطلوا حججهم، وكان في طليعة هؤلاء المدافعين حديثاً الشيخ محمد المكي بن عزوز التونسي المتوفى عام ١٩١٦م، في رسالته الموسومة بـــ«السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني»[1].

---

(١) ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ١١-١٨. وقد ذكر في هذه الرسالة أنّ هناك أكثر من ستين من العلماء النسّابين، والمحققين البارعين، أقروا باتصال نسب الشيخ عبد القادر بالحسن ﷺ.

المطلب الثاني: مولده ونشأته

ولد الشيخ عبد القادر عام ٤٧٠هـ- ١٠٧٧م على رأي معظم الذين أرخوا لحياته، وكانت ولادته في جيلان أو كيلان فعرف بالجيلاني أو الكيلاني، أو الجيلي. وجيلان إقليم فارسي يقع في الجنوب الغربي لبحر قزوين، اشتق اسمها من الجيالي بمعنى الوحل، وذلك لكثرة المستنقعات التي تغمر الإقليم.

ويبدو أن الشيخ الذي ضربت شهرته الآفاق كان آخر أولاد أبويه، لأنَّه عاش يتيماً، فقد توفي أبوه بعد ولادته بقليل لذلك عاش في كنف جده لأمه السيد عبد الله الصومعي فكان ينسب إليه عندما كان في جيلان فيقال: ابن الصومعي. وكان آخر أولاد أمه؛ لأنَّها حملت به قبيل سن يأسها بقليل، حتى قال محمد بن يحيي التادفي في (قلائد الجواهر) إنَّها حملت به وهي في الستين من عمرها[1].

ونشأ الشيخ عبد القادر في كنف أمه التقية النقية، وجدّه العابد المتحنث، الذي رباه على التقوى والصلاح ومكارم الأخلاق، فأخذ بخلائقهم، واقتبس من خلالهم، ومضى على منوالهم في الزهد والتفاني في العبادة وطاعة الرب ﷻ ومراقبته في السر والعلن.

كان الشيخ عبد القادر في بواكير صباه تواقاً للعلوم، مشرئباً للمعرفة، وكان غاية آماله، وحديث أمانيه، أن يلم بأصول الشريعة الإسلامية، ويحيط بمداخلها ومخارجها. وأزمع الشيخ عبد القادر في قرارة نفسه السفر لحاضرة الدنيا ومنارة العلوم بغداد؛ لأنَّ بلاد جيلان التي مكث فيها ثمانية عشر عاماً تفتقر لما يروي ظمأه، ويشفي غليله، ولقد نسج محبوه له العديد من الخوارق

---

(١) ينظر: إتحاف الأكابر في سيرة ومناقب الإمام محيي الدين عبد القادر: ١٨٦.

والكرامات، وهو في هذا العمر الغض، والسن المبكرة، وأحاطوا تلك الفترة بهالة عظيمة من المعجزات التي لا تتسنى لطفل ما زال في معية الصبا، وطراءة السن، أذكر منها انقطاعه عن الرضاعة في نهار رمضان، والانكباب على ثدي والدته ليلاً، وحديث الثور له عندما كان يسير في البراري وإبلاغه بأنه لم يخلق ليكون فلاحاً، ومشاهدته للحج الأكبر من سطح بيته، ولعل قول الحافظ ابن كثير رحمه الله عنه فيه من الإنصاف؛ إذ قال: كان له سمت حسن، وصمت غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان فيه زهد كثير، وله أحوال صالحة ومكاشفات، ولأتباعه وأصحابه فيه مقالة، ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً، ومكاشفات أكثرها مغالة، وقد كان صالحاً ورعاً، وقد صنّف كتاب الغُنيّة، وفتوح الغيب، وفيهما أشياء حسنة، وذكر فيهما أحاديث ضعيفة، وبالجملة كان من سادات المشايخ[1].

سافر الشيخ عبد القادر إلى بغداد عام ٤٧٧هـ-١٠٩٥م، وهي السنة التي خرج فيها حجّة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي تاركاً التدريس في النظّامية، زاهداً في الدنيا، طالباً للمعرفة واليقين، لقد كانت بغداد في عصر الشيخ عبد القادر عنواناً لحضارة عالمية، بما تضمنته من تنوع وثراء؛ فكانت مجمعاً للعلماء والفلاسفة، ومركزاً للفقهاء والمفسرين والمحدّثين، ومنتدى الشعراء والكُتّاب، وأصحاب التراجم والسير والتاريخ، ومحراباً للزّهّاد والصوفية، فلا عجب أن تكون محط أنظار جميع المستنيرين طلباً للمعرفة واليقين، وممارسة التجربة الروحية تحت أنظار مشايخها المشهورين[2].

---

(١) ينظر: البداية والنهاية: ٧٩/٨.

(٢) ينظر: الشيخ عبد القادر الجيلاني حياته وأدبه، مقال الكتروني في مجلة رأي اليوم.

وتخبرنا الكتب المعتّقة أنَّ القافلة التي كانت تقله قطع عليها الطريق مجموعة من الأشرار الذين تتحلب أفواههم للمال، ولّما كانت هيئته ومنظره لا يوحي بأنَّه سليل عز وربيب غنى أراد قاطع الطريق أن يمرّ عليه مرور الكلام فسأله ذلك السؤال الذي ألِفهُ ثغره دون أن يحفل بجوابه عما يحمله من مال، فتفاجأ بإجابة الصبي الذي طرّ شاربه بأنَّه يحمل في معيته أربعون درهماً ذهبياً أودعتها أمه في كمّه، بعد أن عاهدها بأغلظ الأَيمان أنَّه لن يكذب أبداً ولن يفعل ما يغضب الرب ﷻ ويصيب الأخلاق في مقتل، وظنّ اللص أنَّ الصبي يستخف به بعد أن توثق من صدقه سأله عن السبب الذي دفعه لذلك، فأخبره عن كنه العهد الذي قطعه لأمه، العهد الذي جعل زعيم اللصوص يقلع عن ترويعه للناس، وسلب أموالهم فيما بعد، حينما رأى فتاً جاوز حد الصغر، وبلغ سن الرشد، يخبره عن جل ماله في وداعة حتى يبرّ بالعهد الذي عاهد به أمه التي تقاسمت معه تركة والده، تلك الأم التي آثرت أن تعطيه الثمانين ديناراً برمتها لولا رفضه، فهو يعلم حياة الضنك والفاقة التي تعيشها، فذهل اللص من ذلك الوفاء، واغرورقت عيناه بالدموع، واهتز صدره الموبوء بجراثيم الضغائن والحقود من فرط البكاء، وأزمع التوبة بعد أنّ رأى الفتى اليافع يتهافت في الحفاظ على وصية والدته غير آبه ولا مهتم بضياع كل ما يملك، بينما هو وثلّته منذ عهود خلت سلكوا سبيل الردى والعناد، وتركوا سبيل الهدى والرشاد، قطعوا الطريق، وروعوا الآمنين، وأقدموا على فعل ما يجر غضب الله وسخطه، فأعلن توبته وصدع بها أمام جماعته الذين حذوا حذوه، وتحروا طريقته[1].

(١) ينظر: الشيخ عبد القادر الجيلاني موقع دار الفتوى الأوربي.

وصل الشيخ عبد القادر بغداد في زمن الخليفة المستظهر، وأمضى فيها ثلاثاً وسبعين سنة، شهد فيها حكم خمسة من الخلفاء العباسيين هم المستظهر بالله والمسترشد (حكم من سنة ٥١٢ إلى سنة ٥٢٩هـ) والراشد (حكم من ٥٢٩ إلى ٥٣٠هـ) والمقتفي (حكم من ٥٣٠ إلى ٥٥٥هـ) والمستنجد (حكم من سنة ٥٥٥ إلي ٥٦٦هـ)[1].

ولعّل ما لا يند عن ذهن أو يغيب على خاطر أنَّ الدولة العباسية في تلك الحقبة قد تقوضت أركانها، ووهت دعائمها، و لم يبقَ لها من الحكم سوى اسمه، وأن مقاليد الأمور كانت بيد السلاطين السلاجقة. ولقد شهدت تلك الفترة حروباً طاحنة وبلبلة وفوضى واضطراب، فالكل كان يروم الوصول إلى سدة الحكم. وقاطنو بغداد تكالبوا على الدنيا، وآثروا الفانية على الباقية، بعد أن شغلتهم زخارفها وشهواتها عن مروج مصقولة الحواشي، وجنة وارفة الظلال. ولقد رأى الشيخ عبد القادر ببصيرته التي كانت تؤثر جانب الكمال على جانب النقص، أن الشهوات تؤنس جُلاسها بوجهها المتهلل، وتستبهم عليهم معالم القصد، وأن الشباب الذين هم في سنّه يهيمون في أودية الضلال، ويتسكعون في بيداء الغواية، فأقبل على العلم بهمة ماضية، وحرص شديد، وفي سبيل تحصيله، عانى كثيراً من المتاعب، ومن أشدها الفاقة والفقر، فلقد انقضى كل ما كان لديه من مال، فصار لا يجد ما يقتات به، مهما كان قليلاً، ووصل به الحال أن صار يقتات بما يجده في ضفاف دجلة، من قمامات البقل وورق الخس، وثمار الخروب، وصار يمشي حافي الرجلين في الرمال والأحجار، و لم يكن له مسكن يخصه، وصار يتعرض لأمراض تهدد حياته. بل

(١) ينظر: أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته: ٣٠-٣١.

إنّه في بعض الفترات ظن من رأوه في الطريق أنَّه مات، فأرادوا أن يدفنوه في المقبرة، ولكن الله ﷻ لطف به فتحرك جفنه قبل أن يواروه التراب.

وعن تلك الفترة العصيبة يخبرنا بأنَّه بقى أياماً لم يتناول فيها ما يسد الرمق، ويدفع غائلة الغرث والجوع، فذهب يتتبع المنبوذات ليأكلها، فكان من حظه العاثر لا يذهب إلى موضع إلا ويجد غيره قد سبقه إليه، حتى وصل في نهاية المطاف إلى مسجد ياسين بسوق الرياحين فدخل وقد كاد أن يتنسم أريج الموت، يقول الشيخ عبد القادر واصفاً تلك الفترة الحالكة فإذا بشاب أعجمي يدخل ومعه خبز وشواء، وجلس يأكل فرآني، فقال: بسم الله يا أخي، فأبيت، فأقسم عليّ، فبادرت نفسي فخالفتها، وأقسم أيضاً فأجبته فأكلت، فقال: من أين أنت؟ وما شغلك؟ قلت: أنا متفقه من جيلان، فقال: وأنا من جيلان، فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر الزاهد؟ فقلت: أنا هو. فاضطرب وتغير وجهه، وقال: والله، لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي، فسألت عنك فلم يرشدني أحد ونفدت نفقتي، ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا مما كان لك معي، وقد حلت لي الميتة، فأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكل طيباً فإنَّما هو لك، وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي. فقلت له: وما ذاك؟ فقال: أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير. فطيبت نفسه ودفعت إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب، فقبله وانصرف[1].

المطلب الثالث: صفاته الخلِقيّة

كان الشيخ عبد القادر الجيلاني أنزل الله على قبره شآبيب رحمته كما وصفته لنا أمهات الكتب يميل إلى الطول، وتبدو عليه أمارات النبل والاستقامة،

(١) ينظر: الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة: ٢٣-٣٠.

عريض الجبهة، يميل لونه إلى السمرة، ويصل شعره إلى كتفيه، عريض المنكبين، متناسق الأعضاء، عذب الصوت، جهور به، ذو نطق متميز، ونظرات حادة ثاقبة تجعل من الصعب على جليسه أن يديم النظر إليه، ذو لحية طويلة متوسطة الكثافة دقيقة النهاية، هيئته العامة توحي بالبساطة والطيبة والنبل والجمال.

كما كان قوي البنية، وثيق التركيب، مرير القُوى، متين العصب، والدليل على ذلك أنّه سقط في نهر دجلة في ليلة شاتية شديدة الصّرد، وكان عليه جبة من الصوف، فعصرها ثم لبسها ومضى في حال سبيله، ولم ينتابه ما ينتاب غيره من اصطكاك الأسنان، وارتعاش الأوصال، وفي ذلك يقول ابن النجار في تاريخه: سمعت أبا محمد يقول: كنت أدخل على الشيخ عبد القادر في وسط الشتاء وقوة برده، وعليه قميص واحد، وعلى رأسه طاقية، والعرق يخرج من جسده، وحوله من يروحه بالمروحة كما يكون في شدة الحر[1].

كان الشيخ عبد القادر الجيلاني، نبيل النفس، حُرّ الخلال، محمود الشمائل، متجاف عن مقاعد الكبر، وكان من فرط تواضعه أنّه يقف للصغير والجارية، وذلك مع علّو قدره، وعظمة منـــزلته، كما كان يجالس الفقراء ويفلي ثيابهم، ولا يقوم لأحد من العظماء وأعيان الدولة[2]، ولا يلم بباب وزير ولا سلطان. كما كان صدّاعاً بكلمة الحق لا يخشى في الجود بها لومة لائم، وكان من شدة شجاعته ينتقد كل من جنح بعيداً عن شط الحقيقة، ونأى عن جادة الصواب، ولا يحفل بمكانته أو مركزه، فالشريف والوضيع سيان عنده، لذا نجده قد انتقد الخلفاء، والأمراء، وعلية القوم، ولعل خير مثال نستشهد به هنا حينما

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء: ٢٠/٤٤٩.

(٢) ينظر: الشيخ عبد القادر الجيلاني حياته وأدبه: ٤٧.

خطب في الجمعة موجهاً استنكاره ولومه للخليفة المقتفي لأمر الله الذي ولى القضاء يحيي بن سعيد المعروف بابن المرجم، فقال له: ولّيت قضاء المسلمين أظلم الظالمين فما جوابك غداً عند رب العالمين أرحم الراحمين، فارتعد الخليفة وبكى، وعزل القاضي المذكور لوقته[1].

كما عنّف بعلماء البلاط الذين يؤولون أحكام الشريعة لكي تتوافق مع أهواء السلطان، ومن المآخذ على الشيخ عبد القادر الجيلاني أنَّ وعظه كان يتسم بالخشونة والشدة، والوعظ ينبغي أن يُقدم باللطف واللين، حتى تعم المنفعة، وتسود العدالة لتشمل جوانب الأرض، وخوافق السماء، ونحن إذا جشمنا أنفسنا عناء التعليل، لقلنا أنَّ الشيخ كابد لأواء الحياة وقسوتها منذ نعومة أظفاره، فأضحت تلك الخشونة التي داهمته منذ الصغر ممتزجة بخلقته، مؤثلة في فطرته، كما أن الشيء الذي دفعه إلى هذا الأسلوب هو شدة حرصه على تقويم الاعوجاج وإصلاح من لجّ في غوايته، وأوغل في عمايته. ونجد أنَّ الشيخ قد اعتذر عن هذه الشدة بقوله: ما بيني وبينك عداوة، غير أنّي أقول الحق، ولا أحابيك في دين الله ﷻ. قد تربيت على خشونة كلام المشايخ، وخشونة الغربة والفقر، إذا ظهر مني إليك كلام فخذه من الله ﷻ، فإنه هو الذي أنطقني. لأجل ذلك تضام الناس على الشيخ عبد القادر الجيلاني يقبلون يديه ويبالغون في تبجيله والحفاوة به، ويحثّون مطاياهم بالزجر والضرب لحضور مجلسه[2].

---

(١) ينظر: زهرة البساتين من مواقف العلماء والربانيين: ٣١٦.

(٢) ينظر: الشيخ عبد القادر الجيلاني وأعلام القادرية: ٢٧-٤١.

المطلب الرابع: مذهبه وعقيدته

كان الشيخ عبد القادر حنبلي المذهب، أما عقيدته التي درج عليها و لم يحيد عنها قيد أنملة حتى وافاه الأجل هي، الإتباع بدون ابتداع، والتقيد بالكتاب والسنة في كل حال، وكان يكثر من ذكر ذلك في مجالسه ودروسه، وفي خطبه ومواعظه، وفي كتبه ووصاياه.

وأثر عنه قوله لأصحابه: اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا ولا تجزعوا، وانتظروا ولا تيأسوا.

وقال أيضاً: لا تبتدع وتحدث في دين الله ﷻ شيئاً لم يكن، اتبع الشاهِدَيْن العَدْلين الكتاب والسنة، فإنَّهما يوصلانك إلى ربك ﷻ، وأما إن كنت مبتدعاً فشاهداك عقلك وهواك، فلا جرم يوصلانك إلى النار ويلحقانك بفرعون وهامان وجنودهما، لا تحتج بالقدر فلا يقبل منك: لابد لك من الدخول إلى دار العلم والتعلم ثم العمل ثم الإخلاص[1].

ومما يبرهن أنّه كان راسخ الإيمان، ثابت اليقين، لم يلتفت إلى الفتن والمغريات التي تستهدف دينه، ما حدّث به ابنه موسى قال سمعت والدي يقول: خرجت في بعض سياحاتي إلى البرية ومكثت أياماً لا أجد ماءً فاشتد بي العطش، فأظلتني سحابة، ونزل عليّ منها شيء يشبه الندى فرويت، ثم رأيت نوراً أضاء به الأفق، وبدت لي صورة، ونوديت منها: يا عبد القادر أنا ربك وقد أحللت لك المحرمات، أو قال: ما حرمت على غيرك، فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اخسأ يا لعين، فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني وقال: يا عبد القادر نجوت مني بعلمك بحكم ربك وقوتك في أحوال منازلاتك،

---

(١) ينظر: الموسوعة الصوفية: ٥٤٢.

ولقد أللت بهذه الواقعة سبعين من أهل الطريق، فقلت: لربي الفضل والمنة، قال: فقيل له: كيف علمت أنَّه شيطان؟ قال: بقوله: قد حللت لك المحرمات[1].

ولعل من الأشياء التي لم ينضجها بحث أو تصاحبها رويّة، وقوع بعض من استرخى في أيديهم عنان القلم في أخطاء لا ترد إلا ممن غالى في محبّة الشيخ عبد القادر، ونسب إليه من فرط حبه كرامات وخوارق لا تناط بها ثقة، ولا يخلد إليها بيقين، لأنَّها بعبارة مبسطة ترفعه من أكناف الأرض إلى خوافق السموات، وتجعل المرء يعتقد فيه، ويتعصب له، ويدعو إليه، للشيخ عبد القادر تغمده الله وإيانا برحمته كرامات بعضها حقيقي، وبعضها خرافي؛ من تلك الكرامات الخرافية التي يذهل العقل عن تصديقها ما نُقل عن الشيخ عبد القادر أنه قال على كرسي وعظه ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل ولي. وأنَّ العلماء علموا بهذا في جميع الأقطار فحنوا رؤوسهم مذعنين له خاضعين. وزعم البعض أنّ هذه الكلمة تنبئ بعلو كعبه على جميع الأولياء. ومثال ذلك أيضاً قوله أنّه أُعطِيَ سجلاً فيه أسماء مريديه وأتباعه، وأنَّهم وُهبوا له، وأنَّه لا يبرح الموقف حتى يأخذهم معه إلى الجنة. وقوله: أنا أحفظ مريدي في غيبته وحضوره، ومريدي لا يدخل النار. وقوله للميت: قم بإذني.. إلى غير ذلك من الأقوال المدسوسة التي يقصد بها إعلاء شأن الشيخ ورفع منزلته بين أعيان الأمة من أولياء وأتقياء، وبيان أنَّ فضل الله قد انحصر فيه، وفي أتباعه الذين هم خير الناس وأفضلهم، وأقربهم إلى الله وأحبهم إليه كيفما كانوا. ولا يمكن أن تصدر هذه الأقوال عن الشيخ؛ لأنَّ فيها ما يهدم منار التوحيد، ويضر بالعقيدة، وفي الوقت نفسه لا ينطبق على ما عُرف من سيرته وما نُقل عنه[2].

---

(١) ينظر: الموسوعة الصوفية: ٥٤٣.

(٢) ينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: ١٢/٤٥٤.

المطلب الخامس: شيوخه وتلاميذه

كان الشيخ عبد القادر الجيلاني شغوفاً بالعلم، جاداً في تحصيله، مقبلاً عليه بهمة تنطح النجوم وتفل الجبال، ولقد ساعدته عزيمته النافذة، وشكيمته التي تستصغر عظائم الأمور، في ترويض الصعاب، وتخطي رقاب الموانع، الأمر الذي يسّر له أن يتقن في اليوم ما يتقنه أقرانه في أسبوع، تجده دائماً يضطرب في مجالس العلم، متنقلاً من مجلس إلى آخر، تدفعه نفسه التوّاقة إلى الاستزادة والتعمق، فمثل هذه النفس التي عظم قدرها، وارتفعت منزلتها في العيون، لا تركن إلى القليل والسطحي منه، انكبَّ الشيخ عبد القادر على العلم حتى أتقن جميع العلوم التي كانت سائدة في عصره، وكان من جملة الذين أخذ عنهم الحديث أبو غالب الباقلاني، وجعفر السراج، وأبو بكر بن سوسن، وابن بيان، وأبو طالب بن يوسف، ومن الذين أخذ عنهم الفقه القاضي أبو سعيد المخزامي، وأبو الخطاب الكلوذاني، وبن عقيل، ومن الذين أخذ عنهم الأدب زكريا التبريزي[1].

كما نجده قد أخذ علم التصوف عن الشيخ حماد بن مسلم الدباس، ولبس خرقة التصوف من القاضي أبي سعيد المخزمي، ثم حبب إليه شيخه حماد الدباس المجاهدات والرياضيات، وكان هذا الشيخ قدوة لمشايخ بغداد، فساح الشيخ عبد القادر في صحراء العراق ملازماً الخلوة والمجاهدة، متحملاً المشاق في مخالفة النفس، ومحاربة الهوى، وملازمة السهر والجوع، والمقام في الأماكن المنعزلة، مقبلاً على الاشتغال بالعبادة وتلاوة الأذكار، وكذا نجد أن الشيخ عبد القادر قد جمع بين الدراسة العلمية والرياضة الروحية، وقد استمرت فترة الدراسة والتحصيل عنده ما يقارب ثلاثة وثلاثون عاماً، لا نلم بالكثير من تفاصيلها؛ لأنَّه أمضى قسماً كبيراً منها بعيداً عن الناس وعن الدراسة والتحصيل في

(١) ينظر: إتحاف الأكابر: ١٦٨.

خرب المدائن، وإيوان كسرى، وغيرها حتى كان يدعى بعبد القادر المجنون. ولعل الشيء الذي ينبغي عليّ ذكره أن الشيخ عبد القادر الجيلاني تغمده الله برحمته وشمله بعفوه انصب أكثر اهتمامه على دراسة المذهب الحنبلي ثم درس معه المذهب الشافعي أيضاً. ودام هذا الدرس والتحصيل ثلاثاً وثلاثين سنة، ولكنَّه لم يكن متصلاً، بل متقطعاً بحسب الظروف والأحوال[1].

أما تلاميذه الذين نهلوا العلم على يديه فهم من ذوي الشهرة والنباهة، وممن حدث عنه: السمعاني، وعمر بن علي القرشي، والحافظ عبد الغني، والشيخ موفق الدين ابن قدامة، وولداه عبد الرزاق وموسى، والشيخ علي بن إدريس، وأحمد بن مطيع الباجسرائي، وأبو هريرة محمد بن ليث الوسطاني، وأكمل بن مسعود الهاشمي، وأبو طالب عبد اللطيف بن محمد القبيطي، وروى عنه بالإجازة الرشيد أحمد بن سلمة وصحبه الشيخ السهروردي، ويذكر السمعاني أنَّه قرأ عليه كتاب أخبار مكة للأزرقي، وبعض جزء من كتاب الجامع الصحيح لأبي حفص البيجري[2].

وسأترجم لبعض من أخذ عنهم الشيح عبد القادر ممن سبق ذكرهم وبحسب ما توافر في كتب السير والتراجم.

١. شيخه أبو سعيد: المبارك بن علي المخرمي شيخ الحنابلة، وهو الذي بنى مدرسة في باب الأزج وجلس فيها للتدريس ثم تولى المهمة بعده تلميذه عبد القادر، وكانت وفاة أبي سعيد عام ٥١٠هـ- ١١١٦م[3].

---

(١) ينظر: إتحاف الأكابر: ١٦٩.

(٢) ينظر: الشيخ عبد القادر الجيلاني ودوره في الدعوة الإسلامية في أنحاء العالمين الأسيوي والأفريقي: ٦٨ -٧٣.

(٣) ينظر: سير أعلام النبلاء: ٤٨٢/١٩.

٢. أبو الوفاء علي بن عقيل بن عبد الله البغدادي شيخ الحنابلة في عصره، وصاحب التصانيف وصفه الذهبي بقوله: (بحر المعرفة)[١].

٣. حماد بن مسلم الدبّاس، وكان على درجة عالية من العلم والاستقامة، وقد تحدّث عنه ابن تيمية إذ ذكره وتلميذه الجيلاني بقوله: فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة ﷺ بأنَّه لا يريد السالك مرادًا قطُّ، وأنَّه لا يريد مع إرادة الله ﷻ سواها بل يجري فعله فيه فيكون هو مراد الحق[٢].

٤. أبو محمد جعفر بن أحمد البغدادي السراج محدّث بغداد، وصاحب التصانيف كان من يلتقي به من التلاميذ، ويأخذ عنه يتفاخر بذلك وتصبح هذه منقبة له بين طلبة العلم[٣].

٥. أبو عبد الله يحيى بن الإمام أبي علي الحسن بن أحمد بن البّناء البغدادي الحنبلي، وكان من أكثر من أثنى عليه من العلماء وذكروا فضائله كبنائه للمساجد[٤].

يلاحظ من ذكر هؤلاء أنَّ الإمام عبد القادر الجيلاني قد أخذ فقه الحنابلة عن أكثر من شيخ مما جعله على قدر كبير من العلم والإحاطة بفروع المذهب واجتهادات أئمته ومصنفاتهم في ذلك.

---

(١) ينظر سير أعلام النبلاء: ١٩/٤٤٦

(٢) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٠/٤٥٥.

(٣) ينظر: سير أعلام النبلاء: ١٩/٢٢٨.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠/٦.

المطلب السادس: آثاره ومناقبه

خط يراع الشيخ العديد من المؤلفات الجامعة لشتيت الفوائد، تمتاز هذه المؤلفات بالفهم العميق لأهداف الشريعة الإسلامية ومراميها، والأسلوب الناصع البيان، الذي لا يحتاج إلى كد ذهن، ولا إرهاق خاطر. ومؤلفات الشيخ وضعت العلاج الناجع للمشاكل التي تفاقم شرها، واستطار أذاها، في عصره. وأشهر هذه المؤلفات:

١. الغنية لطالبي طريق الحق ﷻ. وهو جزءان، يتناول الجزء الأول الآداب الشرعية التي يجب أن يتحلى بها المؤمن، وكيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ كما يتناول الأدلة على وجود الله، ورأي الفرق الإسلامية المختلفة في مسألة خلق القرآن. أما الجزء الثاني فإنَّه يتناول أركان الإسلام من الشهادتين والصلاة والصوم والزكاة والحج وفضائلها. والقسم الأخير من هذا الجزء مخصص لآداب المريدين والسالكين لطريق التصوف، مع التعريف بمقامات وأحوال الطريق.

٢. الفتح الرباني والفيض الرحماني؛ وهو المواعظ التي كان يلقيها على تلاميذه في مدرسته ببغداد.

٣. فتوح الغيب.

٤. الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، جمع الشيخ محمد سعيد القادري.

٥. وهناك العديد من المؤلفات المنسوبة إلي الإمام الجيلاني، انفردت مصادر عديدة بإشارات مفردة إليها، ومعظمها إما مخطوط أو مفقود.. ومن هذه المؤلفات:

٦. الكبريت الأحمر.

٧. جوهرة الكمال.

٨. جواهر الرحمن.

٩. درر المعاني.

١٠. يواقيت الحكم.
١١. معراج لطيف المعاني.
١٢. تحفة المتقين وسبيل العارفين.
١٣. المواهب الرحمانية.
١٤. تنبيه الغبي إلى رؤية النبي.
١٥. بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطفوني (ت٧١٣هـ) طبعة دار الكتب العربية، القاهرة ١٣٣٠هـ.
١٦. خلاصة المفاخر في اختصار مناقب الشيخ عبد القادر لليافعي (ت٧٦٨هـ).
١٧. قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر للتنادفي (ت٩٦٣) طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند ١٩٥١م[1].
١٨. وهذه المؤلفات، وغيرها مما ينسبه المفهرسون للإمام الجيلاني، تشير إلى مدى الاضطراب الواقع حول آثاره. وهو الاضطراب الذي كان سببه الأول: خراب مدرسة الإمام الجيلاني عدة مرات عند سقوط بغداد بأيدي المغول سنة ٦٥٦هـ، وعند احتلال الصفويين لها بقيادة إسماعيل الصفوي سنة ٩١٤هـ، بعد ذلك بسنوات، وعند غرق بغداد سنة ١٢٤٦هـ. ولولا ذلك، لظلّ تراث الإمام محفوظاً بمدرسته، ولكان تحديد مؤلفاته بدقة تامة عملاً ميسوراً.

المطلب السابع: وفاته

أدرج الشيخ في قبره سنة ٥٦١هـ إثر علّة لم تمهله طويلاً، فالشيخ عبد القادر طوال حياته العامرة بالعطاء، والحافلة بالتقى والعبادة، لم يمرض مرضاً شديداً يجعله يتورك عن الحركة، سوى المرض الذي فاضت فيه روحه، ولم يدم غير يومٍ وليلة.

---

(١) ينظر: ديوان عبد القادر الجيلاني القصائد الصوفية والمقالات الرمزية: ٣٠٧- ٣٠٩.

وكانت وفاة الإمام بعد عتمة ليلة السبت، عاشر ربيع الآخر، وقد جاوز التسعين من عمره، وقد سأله ابنه عبد الوهاب النصيحة فقال: عليك بتقوى الله، ولا تخف أحداً سوى الله، ولا ترجُ أحداً سوى الله، وكِلَ الحوائج إلى الله، ولا تعتمد إلا عليه، وأطلبها جميعاً منه، ولا تثق بأحد سوى الله[1].

وفي يوم وفاته سأله ابنه الشيخ عبد الجبار ماذا يؤلمك من جسدك، فقال ﵁: جميع أعضائي تؤلمني إلا قلبي فما به ألم وهو مع الله ﷻ، وبدأ يردد: استعنت بلا إله إلا الله، ﷻ هو الحي الذي لا يموت، ولا يخشى الفوت، سبحان من تعزّز بالقدرة، وقهر عباده بالموت، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقد تعذر عليه التلفظ بكلمة: تعزز، فظل يرددها حتى تلفظ بها، ثم أخذ يردد: الله، الله، الله، حتى خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه، ثم خرجت روحه الكريمة رضوان الله تعالى عليه.

والشيخ عبد القادر الذي تزوج أربعة نساء في حياته ترك تسعة وأربعين من الأبناء منهم سبعة وعشرون ذكوراً، والباقي إناث، كما ترك ألاف المريدين الصادقين الذين ساروا على نهج الطريقة التي وضعها لهم، واستمرت وتيرة الحركة القادرية على ذات النسق رغم تعاقب القرون، وتفاوت الأزمان، تحتفي بذكر مؤسسها، وتتدفق بين رحاب العالم حتى صارت من أوسع الطرق الصوفية في العالم الإسلامي[2].

(١) ينظر: الطريقة القادرية أصولها وقواعدها بيروت: ١٧٤.

(٢) ينظر: عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب: ٦٨-٧٥.